مقدِّمة رواية «النرجس المراوغ»* لحنان الشيخ

صياح الراكبة أميرة: «ويلي ويلي» يَطْغى على عبارات «الله أكبر، الله أكبر». والأدعية الدينيَّة تعلو من أفواه بقيّة المسافرين، والطائرة ترمي نفسها وكأنَّها يويو.

صراخها المتواصل والمطبّ الهوائيّ يخلعان قلب جارتها الراكبة لميس: «ابني ابني، كيف تركتـه؟» ثم: «شنطة يدي.. جواز سفري!» ما إنْ تستقيم الطائرة قليلاً.

يُسرع راكبٌ إنكليزيّ لمساعدة المضيفة على النهوض.

لكنّ صخب أميرة المتواصل يَخْطف من الركاب قدرةَ العودة إلى السكون، ويحوّلهم راداراً يلتقط أيّ اهتزاز ولو متخيَّلٍ، وبخاصةٍ أنَّهم وعوا أنهم داخل علبةٍ من صفيح تحلِّق بهم بواسطة جناحين اصطناعيين، وتهيم في الفضاء الواسع بين الغيوم والمجهول.

تولول أميرة وهي تنفض رسغيها في وجهِ كلِّ مَنْ جاء يُطَمئنها، فتبدو أصابعُها أشبهَ بأسماكٍ صغيرة أحاطت أعناقَها بخواتم براقةٍ وانتهت بأذيال ملونة.

اتساع وجهها وتبرُّجُه، والنظاراتُ الطبيَّة الكبيرة ذاتُ الإطار الذهبيّ التي تحيط بعينيها، وأحمرُ شفاهها الفاقع، كل هذا جعلها تبدو وكأنَّها رفرافُ سيارة أولدزموبيل قديمة.

نهضتْ تحاول الفرار من الطائرة أكثر من مرّة. مؤخِّرتُها طاولةٌ صغيرةٌ يستطيع المرء أن يضع منفضةً أو كوباً عليها.

تصيح وتبكي ولا تسمع كلمات التهدئة، سواء من جارتها لميس، أو من الراكب الخليجيّ الذي التقت به في مطار دبيّ: «لا تخافي، الأعمار بيد اللّه، مالك السموات والأرض»، أو من الراكب الإنكليزيّ الذي كان يجلس في موازاتها من الجهة الأخرى، أو حتى من كابتن الطائرة الذي غادر مقصورته وأخذ يمشي بين الركّاب يطمئنهم وكأنَّه مُزارعٌ يتفقد أشجاره.

ـ «لا تبكي، كل شيء على ما يرام، لقد انتهى المطبّ، ولن يَحْدث مرةً أخرى». يردِّد نيقولاس هذه الجملة على مسامعها بكلّ صدق وحرارة.

لربما سمعته وفتحتْ عينيْها:

ـ «ويلي ويلي، الله يستر، التوبة يا ربي، لا تحاسبْني لا تعاقبْني».

ما إنْ أقلعت الطائرة حتى أخذت تَعُدّ الدولارات وتضع كل رزمة في مغلف.

«إنَّه مطبُّ هواءٍ لا أكثر ولا أقل».

وكأنَّه بجملته هذه قد ذكّرها بما حصل، فازداد تشنُّجها وهي ترى نفسها تهوي من جديد.

ينظر نيقولاس إلى لميس المتماسكة، يرفع حاجبَيْه ويزمّ فمه، وكأنَّه يعترف لها بفشله في مساعدة جارتها الراكبة.

داخلُ لميس يغلي من الرعب.. جوازُ سفرها الغالي مازال مفقوداً، رغم أنّ المضيفة أعلنتْ عن فقدانه أكثر من مرّة.

بعد لحظات، عاد نيقولاس يسلّم لميس جواز سفرها بعد أنْ لمحه على الأرض تحت مقعدٍ قبالته. تشكره وكأنَّه أعاد إليها حياتها. ينظر في وجهها أطولَ مما أراد وهو يفكّر بنساء الـ devadasis العاريات في سكون المعبد في «كاجوراهو» الذي زاره منذ يومين: كنّ يعبقن بالشهوة وهن يسرّحن شعرهنّ أو يطرحن رؤوسهنّ إلى الخلف، بأثدائهنّ المنتصبة وقاماتهنّ الممشوقة المتماسكة.

رجل يرتدي ملابس لافتة للنظر، يتشبَّث بسلةٍ من قش ذاتِ غطاء، يبحث عن شيء وإذا به يجده في درجةِ رجالِ الأعمال. انحنى يهزّ لميس من يدها:

ـ «دخيلك، مداموزيل، راح جنّ. حضرتك عربيَّة، مش هيك؟ دخيلك، عندك حبّة منوِّمة أو مهدِّئة للأعصاب؟ دخيلك، أعصابي بالويل».

تمدّ لميس يدها إلى علبة الحبوب المهدِّئة التي كانت تنام بسلام خلف سحّاب الجيب، وهي تفكّر: كيف عرف رجلُ السلة أنَّها تتعاطاها؟.

ـ «شكراً، شكراً، اللّه أرسلك حتى تنقذيني».

تنظر إليهما أميرة التي خفّ بكاؤها، وجلستْ تستغفر ربّها واعدةً إياه بالتوبة.

تَعْرض عليها لميس من جديد حبة مهدِّئ، لكنّ أميرة تَنْفض الأسماك الصغيرة ذاتها:

ـ «لا، لا، أعوذ باللّه... لا أريد أن أنعس إذا ـ لا سمح اللّه ـ حَدَثَ شيء، اللّه يستر».

ـ «مداموزيل، مداموزيل، بدّي خَبْرِك سرّ. دخيلك، إحلفي إنّك بتخليه تحت إجريْك.. إحلفي ما تشكيني. معلش، ما تحلفي، مبيِّن عليك إنسانة.. عندي بالسلّة سعدان صغير»..

* .. الصفحات الأولى من روايةٍ جديدة لحنان الشيخ تصدر عن دار الآداب قريباً.

تنظر لميس إلى السلّة الصغيرة، وتتساءل كيف يمكن أن تُخفي سعداناً؟

لم تكن تريد التدخُّل.. فلربما اعتُقل. شدت على نفسها وسألته: «هل هرب»؟

ـ «وين بدو يهرب، ما أنا رابط له إجريه وإيديه بالسلّة، وهي لازقة بصدري مثل اللصقة الأميركيّة.. لازم أعطيه حبة حتى ينام. عم بِنْجُر قشّ السلة».

ـ «بس أنا عطيتك».

ـ «بعرف عطيتيني حبتين، واللّه أنا مش مجنون، مع إنّه مبيّن عليّ مجنون. بس هو ما بياخد الحبّة إلاّ إذا حطيتها بشيء يأكله بالعنب أو الشوكولا...».

ـ «لا، متأسفة ما عندي شيء.. إسأل المضيفة».

ـ «معقول أسألها؟ الناس بالناس، والقطة بالأنفاس. ما راح تردّ عليّ، ما حدا راح يردّ على حدا، كلهم مشغولين ومخفوقين».

وعندما لم يجد على ملامح لميس لهفةً ما لإنقاذه مال إلى أميرة:

ـ «دخيلك، مدام، ليش وقفتِ تبكي وتنوحي؟ دخيلك ارجعي هَسْتري واطلبي شي قطعة جبنة، شي حبة شوكولا».

لم تدعه أميرة يُكْمل، بل عادت إلى البكاء من جديد، وهي تَنْفض رسغيها: «اللّه يستر، اللّه يستر.. ضغطي نزل.. أحسّ بدوخة، أرجوكم قطعة خبز، قطعة شوكولا»..

تقدّم المضيفة لأميرة ما طلبته. تشعر أميرة بالخوف من جديد، فهي قد وَعَدت اللّه بأنها ستصبح في غاية الاستقامة.. لكنْ، أليس فعلُ الخير عند اللّه حسنةً وثواباً؟

«الحمد للّه على السلامة»، ردّد الركابُ العربُ واحدهم للآخر، ما إنْ أعلن كابتن الطائرة أنّ الهبوط في مطار هيثرو بعد ١٥ دقيقة.

يتمطى الرجل الخليجيّ من الصف الأول مخاطباً أميرة:

ـ «الحمد للّه عالسلامة، توكلي بالله دائماً، هو على كل شيء قدير».

عندما سمعتْ لميس كلمة هيثرو فكّرْت بإدوارد هيث، ومحلة همستد هيث، والمنحنيات الخضراء والمقعرِ والعمودِ الكهربائيّ، وجيل رو معلمةِ ابنها في مدرسة الحضانة، وبسؤال ابنها لمعلمته: هل كانت تعلمهم أغنية Row Row Row your boat لأنّها كانت تطابق اسمها؟.

كل شيء أخضر حتى السواقي، والأنهر كانت مائلةً إلى الاخضرار.

الركّاب العرب يتمطّون ويبسملون. يشهق نيقولاس، هو الآخر، للون الأخضر. غاب عن باله كم يشتاق إليه وكم تفتقده حواسُّه

فعلاً كان الأطباء في الخليج يدوّنون على روشتة المريض: «صيف في ربوع انكلترا». كلّ رقعةٍ خضراء في عُمان يَنْظر إليها المرءُ وكأنّها أعجوبة. ولذلك كانت وسائل الإعلام تصوِّر الشجيرات التي تحمل الزهور وكأنّها تُعْلن اكتشاف آبار جديدة للبترول. يمد نيقولاس إصبعه كإصبع آدم ليلامس إصبعَ اللّه لندن، فتختفي عُمان وتصبح كوكباً بعيداً، كأنّها لم تجذبه يوماً بجبالها المدرَّجة.

يعود رجلُ السلّة إلى لميس وأميرة، رغم اعتراض المضيفة واللحاق به:

ـ «دخيلكم راح موت».

تَشْعر لميس بالشفقة عليه:

ـ «هل تريد حبة ثالثة»؟

ـ «لا، لا هو راح فطيس. المصيبة أنا. راح موت من الخوف. خايف يلقطوا السعدان ويكربجوني».

ينحني أكثر، والهلعُ يضرب في عينيه وكأنّهما قلبُه، وهو يسأل لميس وأميرة: هل يفتش رجالُ الجمارك الإنكليز الأشخاص أو حقائب اليد بالأشعة؟ هل يُغرق القردَ في التواليت؟ أم يقول للمضيفة إنه وجده بالمصادفة؟.

ـ «لا تخف، أنا معك. لا يوجد X Ray. دع الطائرة تنزل أولاً، اللّه يستر، اللّه يستر، وأنا أساعدك. إرجع مكانك واتكِلْ عليّ. لا.. لا.. إتكلْ على ربّك، اللّه يستر. اللّه يستر».

ـ «بس لحظة، مدام، صحيح في مطعم اسمه تبّوله؟».

ـ «الذي في شارع دجور؟ يبعد خطوات عن بيتي..».

وفت أميرة بوعدها منذ مغادرة الطائرة. لحقتْ بلميس وفرضتْ عليها السير إلى جانبها، بينما جعلتْ رجلَ السلة (واسمه سمير) يجرّ العربة التي كانت تحمل حقيبتيهما والسلّة فوقهما مطروحة بلامبالاة. وكلما حاول سمير التكمُّشَ بها غنّت له: «سيبني.. سيبني أحلم، سيبني...»، ثم تشغله عن توتره بقولها: «أُنظرْ، الكل معجب بملابسك»، فيتأمل قميصَه «القرساتشي» وجزمةَ الكاوبوي والمعطفَ السميك ذا المقاس الكبير والشال الطويل الملوّن، ثم تسأله: «هل أنت متأكد أنّك لست كلينغر في مسلسل Mash»؟، فيضحك لها بوجهه الطويل وأنفه الطويل وسالفيه الطويلين وشعرهِ الأجعد الذي لا بدّ أنّه قام بتمليسه، ويقول:

ـ «هو لبناني مثلي. صحيح، مدام، أصلُه لبناني».

سائق سيارة أجرة في انتظارها يَحْمل يافطة: «أميرة فايز». عندما رأت أميرة باصاً صغيراً أوشكتْ أن توثِّب السائق، لكنّها التفت حولها تبحث عن الرجل الخليجيّ وابنِ شقيقه. وعندما لم تجدهما سألتْ لميس وسمر مرافقتها.

شعرتْ لميس بالارتياح وبالاطمئنان لأنّها لن تدخل لندن وحدها. تَحِين من أميرة نظرة، فترى الشاب الإنكليزيّ الذي حاول تهدئتها «من صميم قلبه.. من كل جوارحه». وإذا بها تناديه...

لندن